المنظومة
ALMANDUMAH

العنوان:	جدلية الذات الأندلسية: قراءة تحليلية فى "رسائل ابن غالب - ابن حزم - الشقندى"
المصدر:	مجلة سرديات
الناشر:	الجمعية المصرية للدراسات السردية
المؤلف الرئيسي:	عبيدالله، لطفي أحمد بابكر
المجلد/العدد:	ع15
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2015
الشهر:	مارس
الصفحات:	143 - 168
رقم MD:	822109
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex, AraBase
مواضيع:	الأدب الأندلسى، الفكر المعاصر، الادباء الاندلسيين، الذات الأندلسية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/822109

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

عبيداالله، لطفي أحمد بابكر. (2015). جدلية الذات الأندلسية: قراءة تحليلية فى "رسائل ابن غالب - ابن حزم - الشقندى".مجلة سرديات، ع15، 143 - 168. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/822109

إسلوب MLA

عبيداالله، لطفي أحمد بابكر. "جدلية الذات الأندلسية: قراءة تحليلية فى "رسائل ابن غالب - ابن حزم - الشقندى"."مجلة سردياتع15 (2015): 143 - 168. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/822109

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

جدلية الذات الأندلسية

قراءة تحليلية في:

"رسائل ابن غالب - ابن حزم - الشقندي"

إعداد الدكتور
لطفي أحمد بابكر عبيد الله
أستاذ الأدب والنقد المساعد
بجامعة أم درمان الإسلامية
كلية التربية - قسم اللغة العربية وآدابها

المستخلص:

اهتمت هذه الدراسة والتي جاءت بعنوان "جدلية الذات الأندلسية" قراءة تحليلية في رسائل (ابن غالب- ابن حزم – الشقندي)، بالوقوف على دراسة الذات الأندلسية من خلال تلك الرسائل، وتبيان ما مرّت به الشخصية الأندلسية من تقليد للمشرق، ثم التفات إلى الذات، ثم انعتاق كامل عن المشرق. ولمّا كان المنهج الاستقرائي التحليلي أنسب المناهج لهذا النوع من الدراسات جعله الباحث منهجاً لهذه الدراسة، والتي خلصت إلى توصيف هذا الشعور الأندلسي تجاه المشارقة ونظرتهم بأنهم تُبّع لهم، مما دفعهم للحنق والتمرد والانعتاق الكامل عن الذات المشرقية والاحتفاء بالذات الأندلسية من خلال التجربة التقدمية التي انتهجوها.

Abstract:

This study focused on and titled "self Andalusia dialectic" analytical study of the messages (Ibn Galeeb - Ibn Hazm - Alshagandi), of being self-Andalusia study through those messages, and to identify what went through his personal Andalusia tradition of bright, then heed to the self, then full emancipation from the Orient. Since the inductive approach analytical most suitable approaches to this type of studies make it a researcher approach to this study, which concluded that the characterization of this Andalusia feel towards Easterners and their perception that they followed them, prompting them to the anger and rebellion and the full emancipation of self Oriental and celebrate the self Andalusia through progressive experience that were follow it.

مقدمة

تحظى الأندلس بمكانة سامية في قلوب المسلمين وفي عقولهم، إذ هي الجناح الثاني والرافد الآخر لثقافتنا العربية والإسلامية، فالحديث عنها، حديث عن ماضٍ زاهرٍ وأعمالٍ مجيدةٍ ومجدٍ مؤثلٍ مازالت تقف الأطلال الدوارس والآثار البوالى دليلاً مادياً عليه. والحق أن ظهور الأندلس، ومن ثم اندثارها كان أشبه ما يكون بالحلم الجميل أو الطيف الزائر أو النجم الذي حار رماداً بعد إذ هو ساطع.

من المعلوم أن دولة الأندلس قد واجهت صمتاً وتجاهلاً وعقوقاً من المشرقيين سواء أكان ذلك في الماضي أم في الحاضر، ففي الماضي انشغل عنها المشرقيون وانصرفوا واكتفوا بالاستماع للأصوات الانهزامية التي كانت تنادى بالفرار وتجأر بالنكوص على شاكلة قول ابن العسال التي قالها بعد سقوط طليلطة[1]:

ونحن بين عدوٍّ لا يفارقنا كيف الحياة مع الحياة في سفط
يا أهل أندلس حُطّوا مطيّكم فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسلُّ من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

أكتفي بعضهم بالقول إن سقوط الأندلس كان استجابة لقوله تعالى: (وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)[2] أو لقوله: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)[3].

أما في العصر الحديث فقد اقتصرت معظم الدراسات الأندلسية- إلا قليلاً- على فترة الوجود العربي أو النفوذ العربي إبتداء بعصر الفتح

([1]) التلمساني، أحمد بن محمد المقريّ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج6 ، تحقيق د. إحسان عباس، دار الفكر بيروت، ط1، 1986م، ص131

(2) سورة آل عمران، الآية 140.

(3) سورة الإسراء، الآية 16.

واختتاماً بعصر ملوك الطوائف، لكن وبمجيء دولتي المرابطين والموحدين البربريتين تقلصت رقعة الدراسات حولهما إلا ما ندر.

فها هو شوقي ضيف يقول: "ونحن لا نبالغ إذا قلنا إن شخصية الأندلسي في الأدب العربي ليست من القوة كما ينبغي، وخاصة إذا أهملنا جانب البيئة مما لا شك فيه أن هذا الجانب أثّر أثراً واضحاً في طبيعة الأندلس شعره ونثره، غير إننا إذا تركنا هذا الجانب لم نكد نجد شيئاً، فقد كانت الكتلة الأندلسية تنساق وراء تقليد المشرق بكل ما فيه، وحتى شعر الطبيعة لم يأتوا فيه بجديد سوى الكثرة، أما بعد ذلك فصورته وكل ما فيها من أفكار وأخيلة وأساليب هي الصورة المشرقية".(1). أما أحمد هيكل فيرى أن بعد الأندلس عن المشرق جعلهم يحسون بنوع من التخلف عن المشارقة، ويحاولون دائماً أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم برغم بعدهم وسبقهم وغربتهم.(2).

لكنّ فوزي عيسى يخالفهم الرأي في ذلك إذ جعل للأندلسيين التفوق في وصف الطبيعة يقول: حبا الله الأندلس طبيعة ساحرة خلابة، فأحاطت بها البحار وكثرت الأنهار وانتشرت الرياض والحدائق والمنتزهات وفتنت هذه الطبيعة الجميلة شعراء الأندلس، فأحبوها وتعلقوا بها وبرعوا في وصفها في لوحات شعرية آخاذة، وقد أشار الحجاري في "المسهب" إلى ذلك فقال: "وهم – يعني الأندلسيين- أشعر الناس فيما كثّره الله تعالى في بلادهم، وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار والكؤوس،

---

(1) ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، ط10، بدون تاريخ، ص 412.

(2) هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح سقوط الخلافة، دار المعارف، ط9، 1985م، ص 53.

لا ينازعهم أحد في هذا الشأن[1].

عبّر ابن خفاجة عن فتنته بطبيعة الأندلس فقال:

يـــا أهـــل أنـــدلس لله درُّكـــم مـــاءٌ وظـــلٌّ وأنهـــارٌ وأشـــجارُ

مـــا جنـــةُ الخلـــد إلا في ديـــاركم ولـــو تخيّـــرتُ هـــذا كنـــتُ أختـــارُ

لا تحسبوا في غدٍ أن تدخلوا سقراً فليس تدخلُ بعد الجنة النارُ[2].

ومهما يكن من أمر فإن مصادر الأدب الأندلسي ودواوين الشعراء الأندلسيين تحفل بأشعار الطبيعة، ومنهم من بلغ الغاية في وصفها، كابن خفاجة "وقد انعكست فتنة الشعراء بالطبيعة فيما نظموه من شعر، فقد ربطوا الطبيعة بكل موضوع، وجعلوها متكأً ومفترشاً للموضوعات الأخرى، فإذا تغزّل الشاعر جعل الطبيعة إطاراً في وصف محاسنها حتى كاد أن ينسى موضوعه الأصلي، وإذا حنَّ إلى بلاده تذكر طبيعتها الجميلة، وإذا مدح أو رثى أخذت صور الطبيعة تنبت في أبياته. ولم يقف دور الطبيعة عند مجرد المشاركة الفعالة في موضوعات الشعر أو القيام بدور بارز في بناء القصيدة، بل نجد الشعراء يعبرون عن فتنتهم بالطبيعة في قصائد مستقلة بذاتها، يصفون فيها الطبيعة وصفاً خالصاً، فتتهيأ لهم بذلك أن يصوروا الطبيعة بما فيها من مواطن الجمال والفتنة، وأن يقفوا عند كل جزئية من جزيئاتها، فوصفوا الرياض والأزهار والمتنزهات والفوارات والأنهار وغيرها من مظاهر الطبيعة، ولم يتركوا منظراً من مناظر طبيعتهم الساحرة إلا وصفوه وتغنوا به في أشعارهم"[3]

---

(1) عيسى، فوزي سعد، في الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ط1، 2008م، ص11.

(2) ابن خفاجة، ديوان، تحقيق السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1960م، ص136.

(3) عيسى، فوزي سعد، في الأدب الأندلسي، ص17.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى:

1. الوقوف على فضائل أهل الأندلس، وقيمة نتاجهم الأدبي والفكري واللغوي وما إلى ذلك.

2. توضيح معالم الشخصية الأندلسية وما تتمتع به من خصالٍ ورؤى وأحلام وأشواقٍ وتجربةٍ.

3. توضيح الأطوار التي مرّت بها الذات الأندلسية من احتذاء وتقليد للمشرق ثم التفات إلى الذات، ثم انعتاقٍ كاملٍ عن الشخصية المشرقية.

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية الدراسة على:

1. أنها تتبع تطور وتنامي الذات الأندلسية من خلال رسائل "ابن غالب- ابن حزم – الشقندي".

2. أنها تنبئ عن كوامن نفسية ظل الأندلسيون يسترونها زمناً طويلاً، وهي الشعور بالدونية تجاه المشرق.

3. الوقوف على السمات العلمية والفنية للرسائل أعلاه من خلال رؤية خارجية وداخلية لضوابط تلك الرسائل.

منهج الدراسة:

اتبعت الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي، حيث درج الباحث إلى استقصاء ملامح الشخصية الأندلسية من خلال استقراء وتحليل نتاجهم الأدبي والفكري لكتّاب هذه الرسائل.

حدود الدراسة:

الحدود الزمانية: الأندلس "دولة الموحدين، 524هـ - 602هـ "

تنسب حركة الموحدين إلى أمغار بن تومرتُ الهرغي من قبيلة مصمودة من أهل السوس، ويسميه أتباعه أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت[1].

الحدود المكانية: أرض شبه جزيرة الأندلس، هي جزيرة يحدها البحر المتوسط شرقاً، والمحيط الأطلسي غربا، ويفصلها عن فرنسا وسائر أوربا شمالاً جبال وعرة هي جبال البرتات، ويفصل الأندلس عن المغرب مضيق عرف منذ الفتح الإسلامي ببحر الزُّقاق[2].

جدلية الذات الأندلسية

قراءة تحليلية في رسائل "ابن غالب - ابن حزم - الشقندي"

مدخل:

الذات وما يتعلق بها:

مبحث الذات دقيق ورهاناته شائكة متشعّبة وأصول النظر فيه متفاوته. فهو في التراث العربي القديم مغمور، لا نكاد نجد له إشارة ماعدا علوم الكلام، ... ما يذلّل صعوباته، والكلمات في معاجم الاصطلاح تدور على نفسها[3].

الإحساس بالذات ظاهرة قديمة قِدم الإنسان على وجه الأرض، وقد ورد في الأثر أن الله تعالى عندما خلق النفس قال: لها من أنا؟ فقالت: من أنا؟ وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤكد خصائص هذه النفس التي فطرت على حبّ الذات بوسائل مختلفة منها الصريح والضمني[4]، من نحو قوله تعالى: (وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا

---

(1) الداية، محمد رضوان، في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر دمشق، سوريا، ط1، 2000م، ص37.

(2) المصدر السابق، ص 18-19.

(3) الجرجاني، الشريف، التعريفات، الدار التونسية للنشر، ص57.

(4) ابن جرير، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، بدون تاريخ، ص65.

يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{18} وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ{19}﴾[1].أو ما جاء تعريضاً في نحو قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً{63}﴾[2].

قد حظي هذا العارض النفسي بمساحة كبيرة في الدراسات الإنسانية الحديثة وما لها من امتدادات ترمي بظلالها لدى كثير من الشعراء والأدباء.

فالذاتية في علم النفس تعبير عن توتر نفسي جراء مشاعر إنسانية منها الفقر أو الشعور بالعزلة والنقص أو ما ينشأ من دوافع السيطرة والتفوق على الآخرين، وكلها تهدف إلى إشباع العديد من الحاجات التي ترمي إلى بلوغ النفس مرحلة السلام الداخلية[3].

ولا نظفر منها بأكثر ممّا ورد عند الشريف الجرجاني في شرح المواقف من حدّ للذات بأنها الشيء القديم بنفسه أو قوله في التعريفات إنّ: "الذاتي لكل شيء ما يخصّه ويميّزه عن جميع ما عداه"[4].

أمّا مفهوم الذات في الدرس الحديث فهو قطب رحى الصراعات والناس منه نحل ومذاهب إن في مشروعيّة طرح السؤال أو في منزلة الذات ومجالها ومدى فاعليتها وما لها من القوة على الحقيقة.

تزعم الماركسية أنّ الذات وهم بورجوازيّ، وتروم البنيوية أن تجرّد اللغة من الذات[5].

---

(1) سورة لقمان، الآية 18-19.
(2) سورة الفرقان، الآية 63.
(3) خير الله، سيد، علم النفس التربوي أسسه النظرية والتجريبية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص295- 296.
(4) الشريف الجرجاني، التعريفات، الدار التونسية للنشر، ص57.
(5) H.Meschonnic; politique du rythme, politique du' ed. Verdier Lagrasse, 1995, p252.

تزعم الماديّة الحديثة أن الوعي ظاهرة بيولوجيّة طبيعية[1]. ترتد إلى فواعل مركوزة في خلايا الدماغ، في حين تروم طائفة أخرى أن تبرهن أنّ الكائن الفاعل متولّد عن مفهوم الشخص أكثر من كونه نتاج الوعي بالذات[2]، وهو نهج في النظر يراجع المفهوم "الهيقيلي" للذات باعتبارها فيضاً مؤسساً وقوة تجاوزية متوجّهة نحو الآخر، يقوم وعيها وسيطاً بين كونها المباشر وصيرورتها في الآخر، ويراجع أيضاً "الكوجيتو" الديكارتي ويزعم أنّ السبيل إلى الذات لا تكون على أساس من تجربة التواصل اللغوي[3]. وعالمُ الكلام، في ما يرى "بنفنيست" هو عالم الذات الأمثل[4]. لذلك زعم "موشونيك" أنّ الرّهان في الدرس الإنشائي إنّما هو في بلورة نظرية في الذات ملازمة لنظرية في اللغة كلاهما لا تنفك عن الأخرى[5]، طالما كان تصوّر الذات ملازماً لتصوّر اللغة وكذلك منزلة اللغة من الذات[6]. وغير خفيّ أنّ ما يبدو محلّ اتّفاق قد مثّل والدة لتشعّبات في النظر ذهب فيها الدرس في مقاربة الذات في النّص الأدبي مذاهب شتّى لاسيمّا أنّ الذاتية قد عُدّت "العيار في حدّ الأدب"[7]. وعدّت الذات "المجال التاريخي المتغيّر للقيمة"[8].

---

(1) P.Seriot, structure et totalite' PUF, Paris, 1999, 161 et 226/227

(2) J.L.Chedin, lacondition subjective, librairie philosophique J. Vrin, Paris, 1997, p15
F. Jacques. Difference et subjectivite, Auliea Montaigne, 1982, P48

(3) نفسه، ص 125- 127.

(4) E. Benveniste, Problèrnes de linguistique générale, Gallimard, 1966, tI, p.77.

(5) Politique du rythrne, p.189

(6) نفسه، ص 264.

(7) .M. Zink; Ia subjectivité littdraire, PUF, 1985, p.8.

(8) M Renault, in 'Penser Ic sujet aujourdhui , Meridiens Klincksieck, 1988, p.69.

مهما يكن من شيء فإن هذه الأسباب وغيرها دفعتنا إلى اختيار موضوع البحث عن جدلية الذات الأندلسية قراءة تحليلية في رسائل "ابن غالب- ابن حزم- الشقندي"، وقراءة الشخصية الأندلسية من خلالها وفق رؤيتين، رؤية داخلية، ورؤية خارجية، أما الأولى فنقصد بها قراءة الأندلسيين لأنفسهم ومحاولتهم الدؤوبة في إثبات ذاتهم اعتماداً على ما خلفه أجدادهم من نهضة في الفكر وتطور في العلم والفن، بينما نقصد بالرؤية الخارجية محاولتنا في هذه الدراسة الوقوف على ملامح الشخصية الأندلسية وما خلفته من نتاج أدبي وفكري.

أولا: الرؤية الداخلية:

نعتمد في هذه الرؤية إلى استنطاق ثلاث رسائل فنية أندلسية فضلاً عن استقراء بعض المؤلفات الأندلسية. تأتي أهمية هذه الرسائل في أنها تتبع تطور وتنامي الشخصية، كما أنها تنبئ عن كوامن نفسية ظل الأندلسيون يسترونها زمناً طويلاً، تعدُ هذه الرسائل ضرباً من الكتابة عمد إليها عدد من أدباء الأندلس، ونزعوا حولها منزعين، منزع الصناعة، وصفة التأنق عندما يجد الكاتب أن طبيعة الموضوع الذي يطرقه يساعده على ذلك، ومنزع البساطة وصفة الإسترسال حين يعمد الكاتب إلى تسجيل قضايا وتحليل مجتمع وذكر مزايا وترديد أخبار، فكانت الرسالة الواحدة تجمع بين أسلوبين: الأدبي المصنّع والعلمي المرسل[1].

بعد استقرائنا للرسائل الثلاث وهي: رسالة ابن غالب[2]، ورسالة

---

(1) الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، بيروت، دار العلم للملايين، 1979م، ص635.

(2) هو محمد بن أيوب بن غالب القرماطي، من أهل القرن السادس، صاحب كتاب"فرحة الأنفس" ، أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص151.

ابن حزم[1]، ورسالة الشقندي[2]، يمكننا أن نتخذ من كل رسالة شاهداً على مرحلة من مراحل نمو الشخصية الأندلسية، ولنبدأ بالمرحلة الأولى التي سميناها مرحلة الاحتذاء والتقليد:

1/الطور الأول (الاحتذاء والتقليد):

يتمثل هذا الطور في أول عهد للعرب في بلاد الأندلس، إذ جاءوا من بيئة صحراوية مقفرة، وخلفوا وراءهم براءة الطفولة وعبث الصبا وربما عقل الكهولة، كما تركوا رؤاهم وأحلامهم، فمن الطبعي ألا توقع قيثارته لحناً أندلسياً. فكان إذا أراد أن ينظم شعره استعان بذاكرته لا بحالته الشعورية الراهنة، ولعل هذا ما يفسر لنا قوة الشخصية المشرقية في بواكير الشعر الأندلسي، يقول عبد الرحمن الداخل[3].

تبدت لنا وسط الرصافه نخلة تناءت بأرض الغرب عن وطن النخيل
فقلت شبيهي في التغريب والنوى وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي!

فالقارئ لهذه الأشعار يشعر وكأنها أناشيد للغربة والأوبة للوطن الأصلي- أعني بلاد المشرق فعبد الرحمن الداخل يتنفس في جو مشرقي لا علاقة للأندلس به، حيث امتزجت ذاته بالوطن من خلال النخلة التي هي رمز لهذا الامتزاج الوجداني العميق للشرق الوطن الأصلي. وها هو ابن بسام الشنتريني- وإن كان متأخراً زمناً من الفترة التي حددناها- يعلن في صرامة وجرأة تقليد الأندلسيين لأهل المشرق "وأهل هذا الأفق- يعني أهل

---

(1) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي من أهل قرطبة، يكنى أبا محمد، كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام. المصدر السابق، ص 179.
(2) هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد المولود في شقندة الأندلسية، وهي قرية مطلة على نهر قرطبة مجاورة لها من جهة الجنوب، المصدر السابق، ص 224.
(3) المصدر السابق، ج4، ص55.

الأندلس- أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة. حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنماً وتلوا ذلك كتاباً محكماً"[1].

في هذا الطور حافظ الأندلسيون على العادات المشرقية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، الاهتمام بأصالة النسب وكرم المحتد، ففي هذا الطور تجد أسماءهم الفهري والتميمي واللخمي والقيسي ... وهلّم جرا، بل كان إذا نبغ بينهم شاعر أو بدّ منهم ناثر التمسوا له نظيراً من مبرزي المشرق، فسموا ابن دراج بمتنبئ الأندلس، ولقبوا الرصافي البلنسي بابن الرومي المغربي، وأطلقوا على ابن مجبر بحتري الأندلس، كما جروا في مؤلفاتهم على نسق المشرقيين فجاء كتاب الذخيرة لابن بسام على غرار يتيمة الدهر للثعالبي- بل يروى أن الصاحب بن عباد حينما اطلّع على مؤلف أندلسي قال: هذه بضاعتنا ردت إلينا ...

أما رسالة ابن غالب- والتي نحن بصدد دراستها الآن- فيقول فيها: وأهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن، وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنيّة، هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم، ولطافة أذهانهم وحدّة أفكارهم ونفوذ خواطرهم، يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين وأنواع الخضر وصنوف الزهر، فهم

---

(1) الشنتريني، ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،ج1، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، 1997م ص12.

أحكم الناس لأسباب الفلاحة...، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النّصب في تحسين الصنائع، أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضرب، صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية، تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها والنظر في مهماته[1]. ونلحظ أن ابن غالب وإن كان يفخر بالأندلس، فإنه لا ينسى أن يعقدها بالمشرق، يمكننا القول: إن ابن غالب مثله مثل غيره من الأندلسيين الذين لم تتضح له ملامح الوطن المستقل بعد، أو بمعنى ثان أنه لا يتخيل الأندلس بمنأى عن المشرق.

لكن بمرور الوقت شعر الأندلسيون بأن بلادهم أنجبت علماء وشعراء ومفكرين فاتجهت الأنظار إليهم، ولعل هذا ما يمهد لنا الحديث عن المرحلة الثانية من مراحل الشخصية الأندلسية.

2/ الطور الثاني: الالتفات إلى الذات:

لعل أول إرهاص جميل وإيماء لطيف لفكرة الشخصية الأندلسية المستقلة بدأ عند أبي محمد بن حزم الحافظ الظاهري الذي عق التقليد ونبذه وراء ظهره، فكان تحرره المذهبي هو من أوحى للأندلسيين فيما بعد- لاسيما في عهد الموحدين- بفكرة الاستقلال بالذات أو بمعنى ثان معاملة المشارقة معاملة الند للند والنظير للنظير لا معاملة الفرع للأصل. يقول ابن حزم: "وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبد الرحمن بقيّ بن مخلد فهو الكتاب الذي أقطعُ قطعاً لا أستثني فيه أنّه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره، ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبه على أسماء الصحابة (رضي الله عنهم) فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيّف، ثم رتّب حديث كل صاحب على أسماء

([1]) التلمساني، أحمد بن محمد المقريّ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص 150-152.

الفقه وأبواب الأحكام، فهو مصنف ومسند، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء، وسائرهم أعلام مشاهير...

ومنها في أحكام القرآن كتاب بن أمية الحجاري...، وكتاب القاضي أبي الحكم منذر بن سعيد وكلاهما في أحكام القرآن غاية...، ومنها في الحديث مصنّف أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف، بن ناصح، ومصنّف محمد بن عبد الملك بن أيمن، وهما مصنّفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات...، ومنها كتاب القاضي أبي الوليد عبد الله بن محمد ابن يوسف بن الفرضي في المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال...، ومنها في الفقه "الواضحة" ومنها "المستخرجة من الأسمعة"، وهي المعروفة بالعتبية...، ومنها في اللغة الكتاب البارع الذي ألفه إسماعيل بن القاسم يحتوي على لغة العرب، وكتابه في المقصور والممدود والمهموز لم يؤلف مثله في بابه، وكتاب الأفعال لمحمد بن عمر عبد العزيز...، فلم يوضع في فنّه مثله، ومنها كتاب أحمد بن أبان بن سيد في اللغة المعروف بكتاب العالم...، ومن الأنحاء تفسير الجُرِيّ لكتاب الكسائي...، ومما ألف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في أخبار شعراء الأندلس...، وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن إسحاق وهي كتبٌ رفيعةٌ حسانٌ...، وأما الفلسفة فإني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار دالة على تمكنه من هذه الصناعة...، وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن لم تتجاذب فيها الخصوم ولا اختلفت فيها النِحل، فقلّ لذلك تصرفهم في هذا الباب فهي على كلّ حال غير عرّية عنه...، ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب الكلابي جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريراً والفرزدق لكونه في عصرهما،

ولو أنصف لاستشهد بشعره، فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين، وإذا سمينا بقيّ بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري وسليمان بن الأشعث، السجستاني وأحمد بن شعيب النسائي، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد لم نباه به إلا القُفال ومحمد بن عقيل الفريابي...، ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي...، ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل...[1].

ونلاحظ أن ابن حزم لم يترك أحداً من عباقرة الأندلس إلا وبدّ به أهل المشرق، ويرى أن الأندلسيين بلغوا من العلم شأناً ومن الدراسة شأوا يمكن- لو أنصفناهم أن نستشهد بشعرهم، وحتى لا نستطرد كثيراً فإن رسالة ابن حزم لم تكن لتدافع عن الأندلس فحسب، بل تقدم دليلاً موضوعياً على تنامي فكرة الأنا والشعور بالذات عند الأندلسيين، وأنهم على قدر المساواة بالمشارقة لا يتخلفون عنهم. بل يسيرون بجوارهم حذو القذة بالقذة.

وفي هذا الطور استجاب الأندلسيون للبيئة الجديدة واستشعروا مفهوم الوطن والأرض فظهر في أنسابهم البلنسي والباجي والقرطبي والوادآشي وقس على ذلك. أو بمعنى آخر استعاضوا عن النسب القبلي المشرقي بالنسب إلى الوطن الصغير.

---

(1) التلمساني، أحمد بن محمد المقريّ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص 168،...، 179.

3ـ الطور الثالث: الانعتاق:

في هذا الطور اتضحت معالم الشخصية الأندلسية بصورة جلية، ولعل خير شاهد على هذه المرحلة، رسالة الشقندي في فضل الأندلس والأندلسيين، التي يقول فيها: "الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بجزيرة الأندلس أن يتكلم ملء فيه ويطنب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يثنيه، إذ لا يقال للنهارِ: يا مظلم، ولا لوجه النعيم: يا قبيح...، ومن رام أن يفضل بر العُدوة على بر الأندلس فرام أن يفضل على إليمين إليسار"...[1]. ثم يقول: وإنك إن تعرضت هل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن حبيب الذي يُعمل بأقواله إلى الآن؟ ومثل أبي الوليد الباجي، ومثل أبي بكر بن العربي، ومثل أبي الوليد بن رشد الأكبر، ومثل أبي الوليد بن رشد الأصغر؟ وهو ابن ابن الأكبر، نجوم الإسلام ومصابيح الشريعة؟ وهل لكم في الحفظ مثل أبي محمد بن حزم الذي زهد في الوزارة والمال ومال إلى رتبة العلم، ورآها فوق كل رتبة؟... وهل لكم في حُفاظ اللغة كابن سيدة صاحب كتاب المُحكم وكتاب السماء والعالم الذي إن أعمى الله بصره فما أعمى بصيرته؟ وهل لكم في النحو مثل أبي بن السيد وتصانيفه؟ ومثل بن الطراوة، ومثل أبي علي الشلوبين...، وهل لكم في علوم اللحون والفلسفة كابن باجة، وهل لكم في علم النجوم والفلسفة والهندسة ملك كالمقتدّر بن هود صاحب سرقسطة، فإنه كان في ذلك آية؟ وهل لكم في الطب مثل ابن طفيل صاحب رسالة حيّ بن يقظان المقدم في علم الفلسفة، ومثل بني زُهر أبي العلاء ثم أبنه عبد الملك ثم أبنه أبي بكر ثلاثة على نسق؟ وهل لكم في علم التاريخ كابن حيان صاحب المتين والمقتبس؟ وهل

---

(1)التلمساني، أحمد بن محمد المقريّ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4 ، ص 187.

عندكم في رؤساء علم الأدب مثل أبي عمر بن عبد ربه صاحب العقد؟ وهل لكم في الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء إقليمه والاجتهاد في حشد محاسنهم مثل ابن بسام صاحب "الذخيرة"؟... وهل لكم في بلاغة النثر كالفتح بن عبيد الله الذي إن مدح رفع، وإن ذمّ وضع؟...، وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد؟...، وهل لكم شاعر مثل شاعر الأندلس ابن دراج؟...، وهل فيكم من برع في وصف الرياض والمياه." (1).

وتمضي رسالته على هذه الشاكلة إلى منتهاها والحق أن الشقندي لم يكن ليكتفي بالقول، بل يتبعه بالشاهد والبرهان، وفي رسالته نماذج شعرية متعددة يبني من خلالها تفرد الأندلسيين أو يبرز تفوقهم على المشارقة في النظم والأخيلة والصورة.

يمكننا أن نقول إن الأندلسيين وفي سبيل وصولهم إلى المرحلة الثالثة مروا بفترة مخاض عسير ابتدرته رسالة ابن غالب واختتمته رسالة الشقندي.

ثانيا: الرؤية الخارجية:

أما الرؤية الخارجية فسنعمد من خلالها إلى استقصاء ملامح الشخصية الأندلسية من خلال استقراء لنتاجهم الأدبي والفكري الذي قسمناه إلى ثلاثة محاور، كل محور منه ينبئ عن شخصية تامة الخلق مكتملة التكوين مستقلة الذات، وقد ركزنا هذه الدراسة على العصر الموحدي، إذ فيه ظهرت معالم الشخصية الأندلسية في كل أفق من آفاق العلم والفن، ولعلنا نبدأ بالمحور اللغوي والنحوي.

1.المحور اللغوي والنحوي:

تُعد المدرسة الأندلسية واحدة من مدارسنا النحوية كما يقول

---

(1) التلمساني، أحمد بن محمد المقريّ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4 ، ص 192-193.

شوقي ضيف،[1]. ولعل أفضل شاهد على ظهور الشخصية الأندلسية في المجال النحوي كتابات ابن مضاء الظاهري القرطبي في كتابه " الرد على النحاة" فهو ثمرة من ثمار الفكر النحوي عند الأندلسيين، وفيه رد ابن مضاء نحو المشرق على حد تعبير شوقي ضيف[2]. بما أبانه على تعسف نظرية التأويل التي يقوم عليها النحو المشرقي، وبهذا يكون قد هزّ كل القواعد إن لم يكن قد حطمها. ولسنا هنا بمعرض للحديث عن كتاب ابن مضاء بقدر ما نحن في حاجة إلى بيان النضج النحوي عند الأندلسيين، وأنهم لم يكونوا عالة تتكفف كل ما يكتبه المشرقيون، بل كانوا ينتقون وينقون كل ما ران عليه من تعسف وتأويل، وأغلب الظن أن ثورة ابن مضاء على النحو المشرقي تعد امتداداً طبيعياً لثورة الخليفة الموحدي ابن يعقوب على الفقه وتصفيته من فكرة القياس والرأي والتأويل.

2ـ المحور الديني:

سبق أن أشرنا إلى دور ابن حزم في استقلال الشخصية الأندلسية، وأنه لام الأندلسيين على تقليدهم للمذاهب الأربعة"الإمام أبي حنيفة النعمان، الإمام مالك، الإمام الشافعي، الإمام أحمد بن حنبل" خاصة والمذهب المالكي على وجه الخصوص ودعا- بصورة أخرى- إلى كيان مستقل كل الاستقلال.. لكن دعواه ظلت زمناً طويلاً حبيسة خبائها ورهينة قيدها إذا ما لبث أن عاد الفقهاء إلى المذهب المالكي أو بمعنى آخر أن دعواه لم تلق أذناً واعية تعيها إلى أن قيَّض لها الله خليفة الموحدين أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن والذي " انقطع في عهده علم الفروع وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذاهب- يعني المذهب المالكي- بعد أن

---

(1) ضيف، شوقي، المدارس النحوية، دار المعارف، ط2، بدون تاريخ، ص 75.
(2) القرطبي، ابن مضاء، الرد على النحاة، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط2، بدون تاريخ، ص24.

يجرد ما فيها من حديث رسول الله (ﷺ) والقرآن الكريم، ففعل ذلك وأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة ابن سحنون ونوادر أبي يزيد ومختصره.. وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء والمحدثين بجمع الأحاديث من المصنفات العشرة،[1]. وكان قصده من هذا محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث وهذا المقَصد مقصد أبيه وجده" وهو ما يعرف بالمذهب الظاهري.[2].

على هذا النحو نشطت الدراسات الحديثة- في هذا العصر- نشاطاً عظيماً ونبغ فيها أكثر من عالم.

إن دعوة أبي يعقوب تهدف للعودة إلى الأصول والاتكاء عليها وإبطال بدعة التقليد والتعصب للمذاهب... وبهذا يمكننا أن نقول: إن دعوتي ابن حزم وأبي يعقوب من بعد تهدفان إلى استقلال الشخصية الأندلسية في الدراسات الفقهية وأن تعتمد على ذاتها لا على آراء وفتاوي جاهزة تأتي من الفقه المشرقي.

3/ المحور الفلسفي:

أغرى وصف ابن سعيد للفلسفة عند الأندلسيين- بأنها" علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه أن يظهره"- [3]. وعمد كثيرٌ من الدارسين إلى وصف الأندلسيين بالسطحية والبُعد عن التعمق كما يقول

---

(1) المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، ص 197.

(2) الصدر السابق، ص 198.

(3) التلمساني، أحمد بن محمد المقريّ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج4، ص 179.

أحمد هيكل[1]. - ولعل القارئ لتاريخ الفلسفة الأندلسية يشعر بقلق تجاه عبارة ابن سعيد لاسيما وأن الأندلس قد أظلت طوال عهدها- وخاصة عهد الموحدين جمعاً غفيراً من الفلاسفة، بل وأصحاب المذاهب الفلسفية وعلى سبيل المثال لا الحصر ابن باجة والوليد بن رشد وابن طفيل وابن رشد الحفيد، فابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان التي تعد محاولة طيبة في مجال الدراسات الفلسفية، أما ابن رشد الحفيد فلا يخفى دوره في نمو الجانب العقلي في التفكير الفلسفي عند المسلمين- ولا يفرط حقه في تبسيط وشرح تعاليم المعلم الأكبر أرسطو فعلى يديه تعرفت أوربا في العصور الوسطى على الفلسفة الأرسطية بل ظلت تعاليمه يُقسم عليها زمناً طويلاً.

بإمكاننا القول إن الشخصية الأندلسية واضحة وقوية في مجال الدراسات الفلسفية في عهد الموحدين، وعلى هذا النحو فإنّ قول ابن سعيد الأندلسي الآنف الذكر فيه تسرع في إطلاق الحكم.

(1) هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، ص57.

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة الماتعة نستطيع أن نخلص إلى الآتي:

أولاً: إن بواكير التمرد على المشرق والخروج عن إطاره ابتدأ على يد ابن حزم واكتمل نضجه وآتى ثمره على يد أبي يعقوب الموحدي.

ثانياً: إن فن الرسائل كان أكثر صدقاً عن غيره من الفنون التعبيرية إذ صحب الشخصية الأندلسية مرحلة تلو مرحلة، والحق أننا – ركزنا على النثر أيضاً- لارتباطه بالفكر أكثر من ارتباط الشعر به.

ثالثاً: إن شعور الأندلسيين بتجاهل المشارقة لهم واعتبارهم فرعاً لهم، هو من دفعهم إلى الحنق والتمرد. ثم الانعتاق كلياً عن كل ما هو مشرقي.

رابعاً: إن قول شوقي ضيف بأن ليس للأندلسيين شخصية قوية، قول فيه نظر، صحيح أن الأندلسيين في أول عهدهم بالأندلس كانوا ينزعون نحو المشرق لكن سرعان ما التفتوا إلى أوطانهم وتغنوا أناشيداً وألحاناً تقديراً إلى هذه الأوطان.

المراجـــع

أولاً: المراجع العربية:

1. القرآن الكريم.
2. ابن خفاجة، ديوان، تحقيق السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1960م.
3. ابن جرير، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، بدون تاريخ.
4. التلمساني، أحمد بن محمد المقريّ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار الفكر بيروت، ط1، 1986م.
5. الجرجاني، الشريف، التعريفات، الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ.
6. خير الله، سيد، علم النفس التربوي أسسه النظرية والتجريبية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
7. الداية، محمد رضوان، في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر دمشق، سوريا، ط1، 2000م.
8. الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، بيروت، دار العلم للملايين، 1979م.
9. الشنتريني، ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، 1997م.
10. ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، ط10، بدون تاريخ.
11. ضيف، شوقي، المدارس النحوية، دار المعارف، ط2، بدون تاريخ.
12. عيسى، فوزي سعد، في الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ط1، 2008م.

13.القرطبي، ابن مضاء، الرد على النحاة، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط2، بدون تاريخ.
14.المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م.
15.هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح سقوط الخلافة، دار المعارف، ط9، 1985م.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

1. E. Benveniste, Problèrnes de linguistique générale, Gallimard, 1966, tl.
2. F. Jacques. Difference et subjectivite, Auliea Montaigne, 1982,
3. H.Meschonnic; politique du rythme, politique du' ed. Verdier Lagrasse, 1995, p252.
4. J.L.Chedin, lacondition subjective, librairie philosophique J. Vrin, Paris, 1997
5. M Renault, in 'Penser Ic sujet aujourdhui , Meridiens Klincksieck, 1988,.
6. M. Zink; la subjectivité littdraire, PUF, 1985.
7. P.Seriot, structure et totalite' PUF, Paris, 1999, 161 et 226/227
8. Politique du rythrne